الذي يتطلبه شرح اية من معلقات الجاهلية السبع لبانت خطورتها وعمق مواكبتها لزمن الغربة والفجيعة . لقد أطلقت حجب الدخان ايضا حول صديق لتوفيق ، هو بدر شاكر السياب ، ولكن شعره بعد موته اخذ يتكشف عن روعته واهميته ، وانتصف للشاعر أخيرا. والغريب ان السياب ربما اضحى منذ الآن على شيء من « الكلاسيكية » بالنسبة الى المجددين الآخرين واللاحقين . اما توفيق فيبقى مجددا مستقبليا للمجددين انفسهم . كان بدر شاكر السياب صوتا هادرا لعصره لا محيد من سماعه . غير ان توفيق صايغ كان صوتا ذا امواج لم يعرفها او يألفها عصره ، فلم تسمعه الا آذان حساسة خاصة . وككل المبدعين الكبار ، كان توفيق صوتا زامن عصره وسبقه معا : تنبأ به، وصفه ، وتخطاه . ثم صمت. وكان صمته الشعري تجربة أخرى من تجارب العذاب ، تجتاح هذا الجوهر الصلب ، وتحاول تهشيمه .

* * *

في هذه الاثناء كان توفيق قد ترك جامعة كمبردج ، وعين استاذا للادب العربي في جامعة لندن . بقيت اللقاء في لندن وبيروت ، والرسائل بيننا متواصلة. كان يعترف بكسله ، لانه لا يكتب بالقدر الذي يتمناه هو ، أو أتمناه أنا له . غير انه جعل يحس بانكشاف الغمة عنه ، ولو تدريجيا . كان له اصدقاء وصديقات معجبون به يبادلونه الود والعشرة الطيبة . منهم من يقيم في انكلتره او يدرس فيها ، أو يزورها بين الحين والحين . وكان بحديثه معهم ، ولا ريب ، يعوض عن الكثير مما لا يكتبه ، فضلا عن مطالعاته النهمة التي لم يكن ليجاريه فيها أحد . وقد لفت نظري انه في بيروت (واحيانا في لندن) ، اذ يتجول في الشوارع او يخرج للقاء الصحب في الليل او النهار ، يحمل بيده كتابا يضع فيه دائما جواز سفره . لم يكن يحمل هذا الجواز في جيبه ، بل بيده ! فلما سألته عن ذلك قال : لكي يبرزه بسرعة اثباتا لهويته كلما طلب اليه ذلك! كان دائم الخشية من أن يسأله أحد من هو ، ولا يستطيع أن يقنع السائل بهويته — لا سيما اذا كان شرطيا ! هذه صورة نجدها في اكثر من قصيدة لديه ... الرمز والواقع ! وأي واقع !

في الفترة التي أنجز فيها « المعلقة » وبعدها ببضعة اشهر (أي بين عامي ١٩٦١ و١٩٦٢) ، شغل نفسه ايضا بعمل صعب ربما لم يكن غيره ليستطيع الاقدام عليه . وهو ترجمة « رباعيات اربع » لـ تي . اس . اليوت . كانت هذه الرباعيات قمة اليوت الشعرية ، وقد كتبها في غضون سنوات عدة ، وضع فيها تجربته الفنية والدينية والفلسفية على نحو لا ريب ان توفيق كان يتوق لو يحققه هو ايضا في شعره . فجاءت ترجمته للرباعيات ، مع الدراسة الطويلة التي استقصى فيها ببراعته النقدية جوانبها ورموزها المعقدة ، اتماما لعملية الشفاء او التكامل النفسي الذي كان ينشده عن طريق الكلمة . وقد نشر الرباعيات تباعا ، ثم الدراسة عنها ، في مجلة « أصوات » التي كان يحررها الاستاذ دنيس جونسون ديفز ، والذي كنت اعلم بما يلقى وهو يلاحق توفيق ، طالبا منه ان ينجزه ما يعد ، وتوفيق لا يبخل بالوعود !

بيد ان توفيق كان قد سئم الحياة في الخارج لحد الكراهية ، وطفق يبحث عن نهاية للنفي وعودة الى الوطن . سئم التدريس ، وسئم الترجمة ، وأراد الاستمرار بالكتابة ، واحس بأن الغربة استنزفت طاقته . فلما عرض عليه يومئذ ان يراس تحرير مجلة جديدة تصدر في بيروت ويقولبها على الشكل الذي يشتهيه ، اقبل على الفكرة بحماس ولهفة . وهنا ايضا كانت قناعته الداخلية بسلامة ما يفعل هي المتكأ الوحيد الذي يطمئن اليه . وهكذا اتفق مع منظمة حرية الثقافة على اصدار مجلة اختار لها اسمها « حوار » ، وقرر ان يجعل منها افضل مجلة عربية على الاطلاق ، تستقطب خيرة المجددين من الادباء والمفكرين والفنانين . وعاد الى بيروت مشحوذ الهمة والعزيمة كما لم يكن لسنوات ، متفائلا بامكانيات الخلق في الطاقات العربية الجديدة ، مستعدا للبحث عنها والسعي اليها اينما كانت ، لاعطائها حيزها المشروع .

انصرف عن كتابة الشعر ، وجعل المجلة قصيدته المتوالية مرة كل شهرين ، بل راح ينفق عليها من الجهد والحب ما لم يكن ينفقه حتى على شعره . غير انه اندهش ثم انصدم حين رأى رد الفعل العدائي تجاه ما اقدم عليه . ولم يكن التحدي ليخيفه ، وهو الذي ثبت عينيه بوجه الموت مرات ولم يخف . غير انه شعر من جديد انه طريد صيادين لا يعرفهم . وفي غمرة من هذا الشعور العنيف كتب عام ١٩٦٣ قصيدته « بضعة اسئلة لاطرحها على الكركدن » . كتبها (وكان يحسب انه لن يكتب شعرا بعد « المعلقة ») ، ومرة اخرى وجد في رموزها مخرجا شافيا لما يعتمل في نفسه . فلئن يوقع الصيادون بالكركدن ورأسه في حضن